

شكر النعم الالهية



«يقول ﷻ سبحانه وتعالى في محكم كتابه: (أَلَمْ تَرَ وَآءَا نَ اللّٰهَ سَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمٰوٰتِ وَمَا فِي الْاَرْضِ وَاَسْبَغَ عَلَيْكُم نِعَمَهُ طَاهِرَةً وَّ بَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللّٰهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّنِيرٍ) (لقمان/ 20).

تمهيد..

تعتبر النِّعَم من موارد الاختبار الإلهي التي يتعرض لها الإنسان في حياته. والنِّعَم لها آداب في كيفية التعاطي معها، فكما أن الصبر من مستلزمات النجاح في الابتلاء بالمصائب، فكذلك الشكر هو من مستلزمات النجاح في تلقي النِّعَم الإلهية.

إن ﷻ تعالى يختبر عباده بالنعمة والمنحة، كما يختبرهم بالمصيبة والنقمة والمحنة.

يقول اﷻ تعالى: (أَلَمْ تَرَ وَآلَ أَنْ سَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمِمَّا فِي الْأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً وَمِنَ النَّاسِ مَن يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُّذِيرٍ).

هذه من الآيات التي تتحدث عن نِعَمِ اﷻ - سبحانه - على عباده.

في اختبار النِّعَمِ يتلينا اﷻ بما أنعمَ ليختبرنا كيف سنتصرّف. وإذا راجعنا الآيات والأحاديث الشريفة، نحصل على مجموعة عناوين حول النِّعَمِ الإلهية وكيفية التصرف بها، نبدأ بعرضها على النحو التالي:

أولاً: علينا أن نشعر بالنِّعَمِ الإلهية ونعترف بها، فنحن نغفل عن الكثير من نِعَمِ اﷻ علينا. لذا يجب أن نذكّر أنفسنا بها دائماً.

ثانياً: علينا أن نسلّم، أيضاً، بأن هذه النِّعَمِ هي من اﷻ عزّ وجلّ، فما من فضلٍ أو حسنةٍ إلا هي من عند اﷻ.

أمّا السبب في ضرورة الالتفات إلى تذكُّر النِّعَمِ فذلك لأننا نغفل عنها لكوننا اعتدنا عليها فلم نعد نراها، إذ تصيح أمراً طبيعياً. لقد أنعم اﷻ علينا بالوجود وخلقنا في أحسن تقويم، وزوّد أجسادنا بكلّ ما نحتاج إليه، أعطانا البصر لنرى ونتمتّع بكلّ شيء في هذا الكون، فالعين وسيلة لاختبار العلم والمعرفة والهداية، وكذلك وهبنا - سبحانه - بقبية الحواسّ، وأعطانا من الطاقات الروحية ما يمكننا من التمتُّع بالنِّعَمِ المادية والروحية، فكما أنّ هناك لذات مادية، هناك أيضاً لذات روحية. فإحساس الإنسان بكرامته وكرم اﷻ عليه يولّد لديه لذّة روحية. أمّا الشعور بالمعصية والذلّ فهو نقص معنوي وألم روحيّ.

إنّ التمتُّع بالصحة وسلامة العقل والروح من نِعَمِ اﷻ علينا، وكذلك وجود الرسل والأنبياء والأولياء الصالحين، من النعم الإلهية. يقول تعالى: (وَإِن تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا) (إبراهيم/ 34).

ومن نِعَمِ اﷻ - سبحانه - دفعه عنّا بعض المصائب والبلاءات. فإذا كنّا في بلدٍ ليس فيه زلازل أو براكين أو فيضانات، فهذا أيضاً من نِعَمِ اﷻ.

- شكر المنعم:

ثالثاً: بعد معرفة تلك الذمّة ونسبتها إلى الله، يبقى علينا أن نشكره على نعمه. والقرآن يذكرنا في أكثر من سورة قرآنية بضرورة الشكر: (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (البقرة/ 52)، و(لَعَلَّكُمْ يَشْكُرُونَ) (إبراهيم/ 37). وفي بعض الآيات هناك أمر بالشكر: (وَاشْكُرُوا لِلَّهِ) (البقرة/ 172)، و(كُنْ مِنَ الشَّاكِرِينَ) (الأعراف/ 144). وقد مدح تعالى بعض أنبيائه بالاسم كإبراهيم (ع) ونوح (ع) من خلال صفة الشكر. كما ندد بالعباد الذين لا يشكرون في قوله: (أَفَلَا يَشْكُرُونَ) (يس/ 35)، وقوله: (مَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ) (النمل/ 40). أمّا السبب في الحث على الشكر فلأنّه "بالشكر تدوم الذمّة"، بل تنمو وتتكاثر. قال تعالى: (لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ) (إبراهيم/ 7). ونحن لدينا أدعية الشاكرين، ومناجاة الشاكرين. أن نقول: "الشكر"، فهذا من الشكر.

رابعاً: أن نحدّث بالنعمة؛ فإنّ الشعور بالنعمة ومعرفتها ونسبتها إلى الله تعالى، هذا كلّ شيء داخليّ ويبقى الانطلاق للإظهار. يقول تعالى: (وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ) (الضحى/ 11). فإذا كان الإنسان غنيّاً وراح يتدمّر ويُنكر، فهذا خلاف شكر الذمّة. جاء في بعض الروايات أن النبي (ص) قال: "إنّ الله يحبّ أن يرى أثر نعمته على عبده".

والتحدّث عن النعمة لا يعني أن نُخبر الناس بها، بل أن نُظهرها في حياتنا ليرى الله أثر نعمته علينا. وهنا لا بدّ من التوسّع قليلاً لأجل تصويب بعض من المفاهيم الخاطئة والشائعة بين الناس.

إنّ إظهار النعمة والتحدّث بها يجب أن يكون ضمن ضوابط الاعتدال، أي بدون بطر وإسراف وتضييع. في سنن أبي داود، عن أبي الأحوص عن أبيه أنّه أتى النبيّ (ص) في ثوب دون (عنيق رثّ غير مناسب) فسأله النبيّ (ص): "ألك مال؟ قال: نعم. قال (ص): أيّ مال؟ فقال الرجل: آتاني الله من الإبل والخيل والرقيق. فقال (ص): "إذا آتاك الله مالاً فليُرّ أثرُ نعمة الله عليك وكرامته".

- الله جميل ويحبّ الجمال:

يتحدّث الناس عن الزهد والتديّن والورع، بأن يرتدي الواحد منهم ثياباً رثّة ممزّقة، ولا يضع الطيب، ويبقى بدون استحمام. ليس هذا ما أراده الله. عن أبي عبد الله (ع): "إنّ الله عزّ وجلّ يحبّ الجمال والتجمل، ويُبغض البؤس والتبؤس".

إنَّ اِ يكره أن يُظهر الإنسان نفسه فقيراً، وهو ليس كذلك.

خامساً: الحفاظ على الذِّعْم وعدم التفريط بها وإهدارها هو من الواجبات تجاه اِ عزَّ وجلَّ. فلا يجوز، مثلاً، أن يقتل الإنسان نفسه أو يُلحق بها الضرر.

كذلك عندما نذهب إلى الذِّعْم العامة التي تُفيد الناس جميعاً كالبيئة وسلامتها، فعلينا جميعاً أن نحافظ عليها. أمَّا تخريب البيئة فهو كُفْران بهذه النعمة. لذا لا يجوز إهدار الثروات الطبيعيَّة التي هي ملكٌ لجميع الناس. والإسراف بالماء وإهداره غير جائز، وقِسْ على ذلك.

- كيف نحافظ على الذِّعْم؟

سادساً: عدم استخدام الذِّعْم بالمعاصي: إذا أردت أن تختتم آخرتك بخير، فعظِّم آلاء ربِّك، وحافظ على نعمائه، ولا تستبدلها بالمعاصي.

في الحديث القدسي: يا بن آدم، تسألني فأمنعك لعلمي بما ينفعك، ثم تلحُّ عليَّ بالمسألة فأعطيك ما سألت فتستعين به على معصيتي، فأهمُّ بهتك سترك، فتدعونني فأستر عليك، فكم من جميلٍ أصنع معك وكم من قبيح تصنع معي".

علينا أن نحافظ على نعمة الصحَّة والعافية، فلا نأكل الحرام. وإنَّ من يملك المال لا يجوز له استغلاله في الفتنة والنميمة وقتل الناس. ويجب ألا يستخدم الإنسان قوَّته وجاهه وماله في معصية الله؛ فإنَّ هذا يسلب الذِّعْم.

سابعاً: إنَّ استعمال الذِّعْم في طاعة اِ وإعمار الدنيا والآخرة، من أعظم مصاديق الشكر، منها: خدمة الناس وقضاء حوائجهم، إغاثة الملهوف، كفالة اليتيم، الدفاع عن المظلومين والمصطهدين والمعذِّبين، إصلاح ذات البين، توحيد الكلمة ودفع الكيد. روي عن الرسول الأكرم (ص) "إنَّ اِ عباداً خصَّهم بالذِّعْم، يُقرُّها فيهم (يجعلها عندهم) ما بذلوا في خدمة الناس، فإذا منعوها عن الناس حوَّسَّ لها عنهم إلى غيرهم".

ثامناً: إنَّ اﷻ تعالى قال: أنا مَن أعطاكم الذِّعْمَ، فاشكروها بألسنتكم، واذكروها واحفظوها وحدِّثوا الناس بها، وَلَئِن تَطَاهَرُوا فِي جُودِكُمْ، وَحَيَاتِكُمْ، وَاسْتَعْمَدْتُمُوهَا فِي الطَّاعَاتِ.

والذِّعْمُ كثرة كذلك، فإنَّ نسبةَ ما حرَّسَ به اﷻ علينا - مقارنةً بما حلَّ له لنا - ضئيلةٌ جدًّا لا تُذكر. فالأصل هو الحلِّيَّة. ولكن اﷻ تعالى يُحذِّرنا من أن نتعلَّقَ رُوحياً وجسدياً بهذه الذِّعْمِ. يجب أن لا نصبح أسارى وعبداً لها وأن لا نحوِّل السلطة والمال إلى إلهٍ يُعبد.

هذا هو المعنى الحقيقي للدنيا التي يحذِّرنا منها اﷻ - سبحانه - ورسوله (ص). التحذير من الدنيا ليس بمعنى ألا نملك المال والدار أو أن لا يكون لدينا زوجة وأولاد.. بل كلُّ هذا مطلوب ومُستحبٌ وفي بعض الأحيان واجب، فإنَّه كما قيل في تفسير الزهد: "ليس الزهد أن لا تملك شيئاً، بل الزهد أن لا يملكك شيء".

يُكتب على بعض القصور: "لو دامت لغيرك ما وصلتْ إليك". ومع ذلك فإنَّ كثيراً من السلاطين والحكَّام يعيشون حياة الخالدين. ولكنَّ السلطة لا تدوم، وكذلك الصحَّة والمال.. هذه هي الدنيا المتقلِّبة من حالٍ إلى حال: (وَتَلَاكَ الْأَيَّامُ نُدُوراً وَلَهَا بَيِّنَاتٌ الذِّسَّاسِ) (آل عمران/ 140).

وبما أنَّ هذه الدنيا فانية فلمَ تربط نفسك ومصيرك بنعمِ زائلة؟! هذه هي مشكلة الناس حتى أيَّام الرسل والأنبياء والأولياء ودعاة الإصلاح. عندما سقط إبليس في الامتحان الأوَّل نتيجة العجرفة ورفض السجود لآدم (ع)، وضع هدفاً نصب عينيه، وقد أعطاه اﷻ وقته ليبتليه ويبتلينا به. قال (إبليس): (قَالَ فَيَمَّا أَعْتَدَنِي لَأُقْعِدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ) (الأعراف/ 16). فشأن إبليس هو إضلال الناس، وغوايتهم، وأهم سلاح في يده هو الدنيا بمُغرياتها.

وفي الختام نذكِّر أنَّه عندما نشكر اﷻ، اﷻ يشكرنا. وشكره لنا بأن يزيد علينا نعمه، أن يزيدنا عزَّة وكرامة ومنعةً وتماسكاً وعافيةً في الدين والدنيا والآخرة، إن شاء اﷻ.

نسأل اﷻ أن يجعلنا من الشاكرين لأنعمه، بالقول والفعل والعاطفة واللسان والعمل، وأن يُبقينا عبداً له وحده، وأن لا يجعلنا، - في يوم من الأيام - عبداً لحُطام هذه الدنيا الفانية، وأن نكون مع الحقِّ ونصرة الحقِّ، ومع أوليائه نقدِّم الحق لتكون لنا عمارةٌ في الدنيا، وعمارةٌ في الآخرة

أيضاً. ▶

المصدر: كتاب (مواعظ شافية)